إضاءات نقدية (فصلية محكّمة)
السنة السابعة ـ العدد الخامس والعشرون ـ ربيع ١٣٩٦ش / آذار ٢٠١٧م
صص ٩١ ـ ٧٥

الحقيقة المحمدية فى مدائح الخاقانى الشروانى النبوية

حميدرضا حيدرى*
إبراهيم خليلى(الكاتب المسؤول)**

الملخص

المديح النبوى من الأعراض الشعرية التى تكاد تشترك مضامينها بين جميع الشعراء ومن أهم المضامين التى تناولها الشعراء فى المديح النبوى يمكن التطرق إلى معجزات النبى (ص) والتوسل به ومكارم أخلاقه. أمّا الموضوع الرئيس والذى يشكل حجر الأساس فى المدائح النبوية هو "الحقيقة المحمدية" المشهورة بين العرفاء والأوساط الصوفية وهى مما استقاه ابن عربى من حديث النبى (ص) "كنتُ نبيّاً وآدمُ بين الماء والطين." ومن خلال هذه الحقيقة يتجلّى كمال الكائنات فى الإنسان الكامل الذى يتمثل فى شخصية الرسول الأكرم(ص). ومن أسس هذه الحقيقة يمكن الإشارة إلى: ١. خلق نور رسول الإسلام (ص) قبل خلق الكائنات ونبوته قبل أن يُخلق آدم (ع) ٢. تفضيله على المخلوقات وعلى جميع الأنبياء. ٣. أنه هو الغرض الأول لخلق العالم. وبهذا الصدد لقد حاول الباحثان تسليط الضوء على المدائح النبوية لدى الشاعر الفارسى الخاقانى الشروانى واستكشاف الحقيقة المحمدية فيها حيث تبيّن أن الخاقانى من القائلين بالحقيقة المحمدية.

الكلمات الدليلية: المديح النبوى، الحقيقة المحمدية، تفضيل النبى، الخاقانى.

---

*. أستاذ مساعد فى قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة العلامة الطباطبائى، طهران، إيران
farsiarabi2013@yahoo.com
**. طالب مرحلة الماجستير فى قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة العلامة الطباطبائى، طهران، إيران
eb.khalili55@gmail.com

تاريخ الاستلام: ١٣٩٥/٤/٩ش تاريخ القبول: ١٣٩٥/٩/٢٥ش

المقدمة

المديح النبوى أحد الأغراض الشعرّية التى تطرق إليها العديد من الشعراء فى مختلف الآداب الإسلامية حيث وصفوا محاسن صفات النبى(ص)، واستعرضوا وقائع حياته وتناولوا معجزاته ومدحوا أهل بيته وأشادوابنبوّته وقيادته للأمة. فالمدائح النبوية تجمع فى طياتها بين معالم الشخصيّة الإنسانية المثلى التى تتجسد فى نبى الإسلام(ص) وما قال الله سبحانه وتعالى عن صفات نبيّه(ص) فى كتابه العزيز. لقد لفتت شخصية النبى(ص) اهتمام الشعراء المسلمين من مختلف المذاهب والطوائف وقد برز اهتمام الشعراء بشخصية رسول الله(ص) وتفضيله على جميع الكائنات. شهدت المدائح النبوية فى العصور الأدبية جزراً ومداً إلا أنها انتشرت انتشاراً واسعاً فى العصر المملوكى ولعل سبب ذلک يعود إلى نشوب الحروب الصليبية التى كانت لها روح دينية متعصبة ومعارضة للدين الإسلامى من جهة والزحف المغولى الغاشم الذى جاء لطمس المعالم الحضارية من جهة أخرى وما أصيب به المجتمع المملوكى من التدهور السياسى والكوارث الطبيعية وانغماس المجتمع فى اللهو، الأمر الذى أثر فى انتشار المديح النبوى كنتيجة طبيعية لمقاومة المظاهر المخالفة للدين والمروجة للهو والمجون حيث استخدم فئات من الشعراء شعرهم لتبجيل شخصية نبى الإسلام(ص) والثناء عليه وتفضيله على الخلق ومدح خصاله الحميدة. ومن أبرز الشعراء الذين اهتموا بالمديح النبوى منذ بزوغ فجر الإسلام حسان بن ثابت الأنصارى وكعب بن زهير والكميت الأسدى وصفى الدين الحلّى والبوصيرى. وأما الشعراء الفرس فهم كذلک جندوا طاقاتهم الشعرية للذود عن حياض الإسلام من خلال شعرهم الدينى بما فى ذلک المدائح النبوية وذلک منذ عصر الرودكى والكسائى وحتى القرون المتأخرّة بحيث نرى اهتمام الشعراء الإيرانيين بهذا الفن بارزاً مثلما نرى فى أدب مولانا والعطار النيشابورى وسنائى والخاقانى ونظامى كنجوى وملا محسن فيض الكاشانى.

وقد حاول الشعراء أن يتناولوا فى مدائحهم النبوية كل ما يرتبط بنبى الإسلام(ص) من معجزاته وميزاته الخَلقية والخُلقية الحسنة وما يمتّ إلى أهل بيته(ع) بصلة. وأما الموضوع الرئيس فى هذه المدائح فهو ما اشتهر بالحقيقة المحمدية حيث سيجرى الحديث

عنها لاحقاً.

خلفية البحث

فيما يتعلق بسوابق البحث تجدر الإشارة أن الباحثين قاما بالبحث حول كتب ومقالات عن دراسة الحقيقة المحمدية فى شعر الخاقانى إلا أنهما لم يعثرا على بحث مستقل ودراسة متفردة بالموضوع إلا أن هناك بحثاً موجزاً فى طيات كتاب «المديح النبوىّ فى شعر حسان العرب وحسان العجم» من منشورات يار دانش وهو يحمل عنوان «الحقيقة المحمدية فى شعر الخاقانى» لتورج زينيوند ولا يفوتنا هنا الإشارة إلى أن الحقيقة المحمدية فى حد ذاتها كانت موضع اهتمام الكتاب والمؤلفين كما أن هناك كتاباً نشرته مؤسسة "تنظيم ونشر آثار الإمام الخمينى" تناولت فيه فاطمة طباطبائى الحقيقة المحمدية حسب رؤى مولانا وملا محسن فيض الكاشانى، ومقال آخر وهو «سيماى پيامبر اعظم در ديوان خاقانى شروانى» لجهانغير صفرى وروشنک رضائى طبع فى مجلة «پژوهش زبان وادبيات فارسى» المحكمة حيث لم يفرد الكاتبان بحثاً حول الحقيقة المحمدية.

أسئلة البحث

١. ما هى الحقيقة المحمدية وهل احتلت حيزاً ملحوظاً فى البحوث الأدبية؟
٢. هل الخاقانى الشروانى من القائلين بالحقيقة المحمدية؟
٣. كيف استخدم الخاقانى الحقيقة المحمدية فى شعره؟

فرضيات البحث

١. الحقيقة المحمدية وقعت موقع اهتمام الشعراء واحتلت مكانة مرموقة فى شعر عدد من شعراء المدائح النبوية.
٢. الخاقانى كان من القائلين بالحقيقة المحمدية وشعره خير دليل على ذلک.
٣. قد تناول الخاقانى فى شعره أهم الموضوعات التى تدور فى فلک الحقيقة المحمدية.

وأهم المصادر التى تم الاعتماد عليهاعبارة عن "ديوان" الشاعر و"مثنوى تحفة

العراقين" و"شـرح ديوان الخاقانى" لمحمد رضا برزگر خالقى وأربعة من التفاسير المهمة للقرآن الكريم. تقوم هذه الدراسة على المنهج التحليلى والوصفى.

حياة الخاقانى وشعره

«ولد أفضل الدين بديل بن على الخاقانى الشـروانى فى شـروان القريبة من مدينة باكـو الحاليةعام ٥٢٠ هـق وهى تقع فى شمالى آذربيجان الإيرانية و التى يكون اسمها التاريخى "أرّان". كان أبوه نجاراً فقيراً يسمى علياً وكانت أمه من المسيحين النساطرة الذين أعلنوا إسلامهم.» (صفا، ١٣٧٢ش، ج٢: ٧٧٧)

«وعلـى الرغم من حياة والديه الفقيرة فقد حظى الخاقانى بدعم وحماية وتشـجيع مـن قبـل عمه كافى الدين عمر بن عثمان الذى كان حكيماً وطبيباً وفيلسـوفاً. وبما أن عمـه أدرک مواهبه منذ طفولته فسـعى فى تربيته وحين سمـع منه قصائده فى مدح النبى الأعظم(ص) وغيرها من القصائد قارنه مع حسان بن ثابت الأنصارى ولقّبه بـ"حسان العجم". وبما أن الخاقانى قد أعجب بهذا اللقب فقد ذكره فى أشعاره مراراً.» (استعلامى، ١٣٨٧ش: ١٦)

«تـوفى الخاقـانى عام ٥٧٥ فى تبريز وهو فى الخامس والسـبعين من عمره فى حياة زاخرة بالألم والمعاناة والتشكى ودفن جثمانه فى مقبرة الشعراء.» (سجادى، ١٣٧٠ش: ١٤)

انتشـرت النزعة الصوفيـة فى إيران خلال هذا العصر إثر مـا مورس ضد العلماء والأدباء من تضايق وتشـدد بحيث مال العديد من الشـعراء إلى هذه النزعة كما حدث ذلک فى الأدب العربى.

لقد تناول الخاقانى الشروانى فى أشعاره مدح النبىّ الأعظم(ص) كما صوّر شخصيته وسيرته ومدح الأماكن المقدسة لاسيما مكة والمدينة.

للخاقانى ثلاث عشـرة قصيدة فى نعت النبى(ص) ومدحه وأهمها: منطق الطير، حرز الحجاز،كنـز الركاز، تحفة الحرمين وتفاحة الثقلـين فضلاً عن مدائحه النبوية فى مثنوى تحفة العراقيين.

الحقيقة المحمدية

مصطلح "الحقيقة المحمدية" مما يستخدم لدى العرفاء بشأن النبى(ص) حيث قالوا: «قد ظهرت جميع العوالم من هذه الحقيقة وقيل إنها حقيقة الحقائق.» (كاشى، ١٣٧٦ش: ١٣١) «وقد جاء فى معتقدات الصوفية والعرفاء بأن هذه الحقيقة يظهر فى الإنسان الكامل. والنبيّ والرسول والوليّ من مظاهر هذه الحقيقة فى العالم السفلى وأكمل مظهر لهذه الحقيقة فى العالم هو النبى الأكرم(ص).» (المصدر نفسه: ٣٥٢)

«لقد أصبحت هذه الحقيقة من مفردات العرفان الإسلامى، ويعنون بذلک أنّ الحقيقة المحمدية تمثل التعين الأول للأعيان الثابتة والتى تقف على رأس جميع "الأعيان الثابتة" والتى تحققت من خلال التجلى الإلهى الأكمل. ومن تلک الحقيقة تُفاض على كافة العوالم الأخرى. ويعتقد العرفاء بأنّ الحقيقة المحمدية تتبلور فى الإنسان الكامل وأنّ النبى والرسول والولى يعتبر من مظاهر تلک الحقيقة فى العالم وأنّها تجلّت بأسمى صورها وأحسنها فى شخصية الرسول الأكرم(ص).» (موقع موسوعة المعارف الإسلامية الإنترنتية، الحقيقة المحمدية)

وبهذا الشأن لا تُعتبر الحقيقة المحمدية عقيدة صوفية بحتة، ولا تنحصر هذه الحقيقة فى الأوساط الصوفية وفى تعاريف معينة كما يقول الدكتور زكى مبارک: «هى تعنى أن النبى هو أول تعيّن للذات الأحدية قبل كل تعيّن، فظهر به ما لا نهاية له من التعينّات.» (مبارک، ٢٠١٢م: ٢٥٩) وأيضاً يجب أن لا نحصر كل العقائد المتعلقة بهذه الحقيقة فى الغلو، كما حدده الدكتور زكى مبارک قائلاً: «وهذا الغلو لا يُفهَم إلّا إذا عرفنا أنّه يرجع إلى أصل من أصول التصوف، وهو القول بالحقيقة المحمدية.» (المصدر نفسه: ٢٥٨) وعلى أىّ حال قد تشكلّت هذه الحقيقة من عدّة نقاط فيما يخص شخصيّة النبى(ص) منها، الأول: يعتقد المعترفون بهذه الحقيقة أن النبى(ص) خُلق نوراً قبل أن يخلق الله الكائنات وكان نبيّاً وآدم بين الماء والطين. وهذا على أساس ما روى عن النبى من الأحاديث المشهورة المتواترة، كحديث يخاطب فيه جابر بن عبدالله الأنصارى: «أول ما خلق الله نور نبيّک يا جابر.» (المازندرانى، ١٣٧٦ق: ٢١٤) أو «كنت نبيّاً وآدم بين الماء والطين.» (المصدر نفسه : ٢٢٥)، الثانى: هو أن النبى(ص) كان الغرض الأول لخلق هذا

العالم بالاستناد إلى رواية «لولاک لما خلقت الأفلاک.» (المصدر نفسه: ٢١٨)، الثالث: من أصول هذه العقيدة، هو أن النبی(ص) أفضل الخلق بل أفضل الأنبياء(ع).

الحقيقة المحمدية فی شعر الخاقانی

أ) خلق نور النبیّ ونبوّته قبل خلق الكائنات:

أما بالنسبة إلى خلق نور النبی(ص) قبل أن تخلق الكائنات، وبالنسبة إلى نبوّته قبل أن يخلق آدم(ع)، فيستشهد الرافضون لهذه العقيدة بالآيات القرآنية كقوله تعالى: ﴿قُل إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثلُكُم يُوحى إِلَيَّ﴾ (الكهف: ١١٠) ويعتقدون بأنّ النبی(ص) مخلوق كبقيّة أبناء البشر يتولد ويعيش ثم يموت. ولكن هذا الرأی يرتبط بالبعد المادّی والعنصری للإنسان أن صفة "البشرية" هی التی تتعلق بالهيئة الظاهرة ولهذا لا شّک فی أن النبی فی صفة البشرّية كبقية الناس يتولد ويأكل ويمشی ويموت. وأما الذی يرتبط بهذا الاعتقاد فی قضّية الحقيقة المحمدية يختلف عن نشأته العنصرّية بل يرتبط بحقيقته الأزلية عند ربّه. نكتفی هنا فی تبيين هذه القضّية ببعض ماورد من الأحاديث والتفاسير؛ وقد خاطب الله أهل الكتاب قائلاً: ﴿قَد جَاءَكُم مِنَ اللهِ نُورٌ وَ كِتَابٌ مُبِينٌ﴾ (المائدة: ١٥) وقد قيل فی تفسير هذه الآية: «من المحتمل أن يكون المراد من النور هو النبی(ص)، وقد عدّه الله تعالى نوراًفی قوله: ﴿وَ سِرَاجاً منيراً﴾» (الطباطبائی، ١٩٧١م، ج٤: ٣٣٧)

وقال الطبری فی تفسيره: يقول جلّ ثناؤه للذين خاطبهم من أهل الكتاب: «قد جاءكم يا أهل التوراة والإنجيل من الله نور، يعنی بالنور محمداً(ص) الذی أنار الله به الحق وأظهر به الإسلام، ومحق به الشرک، فهونور لمن استنار به يبين الحق، ومن إنارته الحق تبيينه لليهود كثيراً مما كانوا يخفون من الكتاب.» (الطبری، ١٤١٢ق: ١٦١)

قد قال الرازی: «و فيه أقوال، الأول: أن المراد بالنور محمد، وبالكتاب القرآن، والثانی: أن المراد بالنور الإسلام وبالكتاب القرآن، الثالث: النور والكتاب هو القرآن وهذا ضعيف، لأنّ العطف يوجب المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه وتسميته محمد والإسلام و القرآن بالنور ظاهرة، لأن النور الظاهر هو الذی يتقوّی به البصر على إدراک الأشياء الظاهرة، والنور الباطن هو الذی تتقوّی به البصيرة على إدراک

الحقائـق والمعقولات.» (الرازى، ١٤١٠ق: ١٨٩ و١٩٠) ولكن البعض يفسّـرون النور بالنور الظاهر حيثقال بعض الشعراء فى أشعارهم بأنّ النبى(ص) كان نوراً ليس له ظلّ. وعليه سنشير بهذا الشأن إلى نماذج من شعر الخاقانى.

وفى تفسير الآية القرآنية: ﴿وَ إِذ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَّا آتيتُكُم مِن كِتَابٍ وَ حِكمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُم رَسُولٌ مُصَدّقٌ لِما مَعَكُم لَتُؤمِنَنَّ بِهِ وَ لَتَنصُرَنَّهُ قَالَ أَأَقرَرتُم وَ أَخَذتُم عَلَى ذَلِكُم إِصرِى قَالُوا أَقرَرنَا قَالَ فَاشـهَدُوا وَ أَنَا مَعَكُم مِنَ الشَّـاهِدِينَ﴾ (آل عمران: ٨١) قد ورد عـن الإمام على(ع): «إن الله أخذ الميثـاق على الأنبياء قبل نبيّنا أن يُخبروا أممهم بمبعثه ونعته ويبشّروهم ويأمروهم بتصديقه.» وفى الدر المنثور أخرج ابن جرير عن على بـن أبى طالـب(ع)، قال : لم يبعث الله آدم نبياً فمن بعده إلّا أخذ عليه العهدفى محمد لئن بعـث وهو حـىّ ليؤمنن به ولينصرنه، ويأمر فيأخذ العهد علـى قومه ثم تلا: ﴿وإذ أَخَذَ الله ميثـاقَ ...﴾ (الطباطبائى، ١٩٧١م، ج٣: ٢٤٤) ويؤكد صاحب تفسـير الميزان على أن الروايتين تفسّران الآية بمجموع ما يدل عليه اللفظ والسياق كما مرّ. وقد روى عن الإمام على(ع) «بعث الله محمداً لإنجاز عدَته، وإتمام نبوته، مأخوذاً على النبيين ميثاقه.» (نهـج البلاغة: ٣٨) وأيضا يقول الإمام(ع) مشـيراً إلى حقيقتـه النورية وتقدم حقيقته علـى الأنبياء: «أرسـله بالضّياء، وقدَّمه فى الاصطفاء.» (المصدر نفسـه: ٤٣٨) وهناك كلام آخر نقله الشـيخ يوسف بن إسماعيل النبهانى من رسالة «التعظيم والمنة فى تفسير لتؤمنّ به و لتنصرنّه» لتقى الدين السـبكى: «فى الآية مـن التنويه بالنبى(ص) وتعظيم قدره مالا يخفى وفيه مع ذلک أنّه على تقدير مجيئه فى زمانهم يكون مرسلاً إليهم، فتكون نبوّته ورسـالته عامّة لجميع الخلق من زمن آدم إلى القيامة وتكون الأنبياء وأممهم كلهم من أمّته.» (النبهانى، لاتا: ٤١) وبهذا الشـأن يقول الدكتور الطهرانى فى تفسـيره: «آية غُرّة ترفع من شـأن خاتم النبيين(ص) إلى أعلى القمم التى لا تسـاوى أو تسامى حيث تحمّله – وهو آخر النبيّين– المجىء إليهم كلهم برسالته القدسيّة.» (الصادقى الطهرانى، ١٣٦٣ش، ج٥: ٥٧)

ثم يواصل الشـيخ النبهـانى قوله « فإنّ النبوة وصف لا بّـد أن يكون الموصوف به موجـوداً وإنّما يكون بعد بلوغ أربعين سـنة أيضا فكيف يوصف بـه قبل وجوده و قبل

إرساله وإن صحّ ذلک فغيره کذلک. قلت: قد جاء أن الله خلق الأرواح قبل الأجساد، فقد تکون الإشـاره بقوله "کنت نبيّاً ..." إلى روحه الشـريفة أو إلى حقيقته. والحقائق تقصـر عقولنا عن معرفتها وإنّما يعلمها خالقها ومن أيده بنور إلهی، ثم إن تلک الحقائق يؤتی الله کل حقيقة منها ما يشاء فی الوقت الذی يشاء، فحقيقة النبی(ص) قد تکون من قبل خلق آدم آتاها الله ذلک الوصف.» (النبهانی، لاتا: ٤٢)

يقول الدکتور الصادقی الطهرانی فی تفسـيره: «وترى إذ تعنی زمناً واحداً جمع فيه النبيّـون لجمع واحد لأخذ ذلک الميثاق منهم، وقد يحتمل أنّ إذ تعنی زمن خلق کل من النبيّـين أن فطرهـم الله علی ذلـک الميثاق. وقد يقال إنّ مصير الإقـرار هنا هو مصير الإقـرار بالتوحيـد فی آية الذّرّ، إذن فکمـا فطر الله النّاس علی توحيـده منذ خلقهم، کذلک فطـر النبيّين علی الإيمان بمحمد(ص) ونصرته. فالروح الرسـالية المحمدية محلّقة علی کل الأرواح الرسالية قبل خلقها فی الجسد، وهی محلّقة عليها بعد خلقها فی الجسد وبعثها لرسـالتها الختميـة.» (الصادقی الطهـرانی، ١٣٦٣ش، ج٥: ٥٧ إلی٦١) ومن ثَمّ يسـتنتج أنّ لنبيّنا محمد(ص) مميّزاتٍ ليست لسـائر النبيّين. فيقول: «لقد خُصّت الرسالة المحمّدية بمميّزات بين کافة الرسل وعلی حدّ قوله(ص):کنتُ نبيّاً و آدم بين الماء والطين. فکينونات الرسـالة المحمدّية أربع لا يشترک سـائر الرسل إلّا فی أولاها وهی الکينونة الرسـالية فی علم الله، دون الثلاثة الأخری وهی کيان الإيمان به ونصرته بالتبشـير قبل خلقه وبعثه، وکيان رسالته فی الأرواح الرسالية کرأس الزاوية، وکيان الإيمان به ونصرته فی رجعته.»

(المصدر نفسه: ٦٥)

وعلی هذاالأساس أصبحت هذه العقيدة بالحقيقة المحمدّية کمحور أساسی فی المدائح النبويّـة وفی هذا السـياق کان الخاقـانی ممن يعتقد بأن النبی(ص) قـد خُلق قبل خلق الکائنات، وکان نبيّاً قبل خلق کل شیء ومثال ذلک ما يلی:

برنامـده سـپيده صبـح ازل هنوز کاو بر سـيه سـپيد ازل بود پيشوا

– قبلَ أن يطلع فجر الأزل کان فجر الکون يستضیء بنور النبی (ص).

وأيضا يقول:

دیباچه سراچه کل، خواجه رسل　　کـز خدمتش، مراد مُهَنّـا بر آورم

– النبى مقدّمة خلق العالم، وهو سـيد الرسل، والذى أقضى حاجتى المهنّاة[1] بواسطة خدمته.

فنرى فى الشطر الأول أن الشاعر يكرّر عقيدته بأن النبىّ بداية خلق العالم وأنه سيد الرسل، وقد تجلى فيه كمال الخلق.

وفى أبيات أخرى يأتى بتعليلات وتشبيهات يؤكد بها على عقيدته:

بهينه سـورت او بـود و انبيا ابجـد　　مهينـه معنـى او بـود و أصفيا اسمـا

اگر ز بـعـد همه در وجودش آوردنـد　　قـدوم آخـر او بر كمال اوست گـوا

نه سورت از پـس ابجـد همى شود مرقـوم　　نـه معنـى از پس اسما همـى شـود پيـدا

نه روح را پس ترکیب صورت است نزول　　نه شمس را پس صبـح كـاذب است ضيا

– كان النبى محمد(ص) هو الصورة المكتملة للرسل قبله، كما أن السورة هى الصورة المكتملـة للحـروف. والنبى هو المعنى والأنبياء هم الأسمـاء. فاكتمال الأسماء وتركيبها يؤدى إلى ظهور المعنى.

– فإذا خلق اللهُ رسـوله(ص) بعد غيره من الأنبياء، وبعثه بعد بعثِ غيره من الرسل فإنّما هو شاهد على كماله.

– أليسـت السورة تكتمل بعد الحروف الأبجدية؟ أليست المعانى تدخل حيز الوجود بعد تكوّن الألفاظ؟

– أليست الروح تهبط بعد تركيب الصورة؟ أليست الشمس تطلع بعد الفجر الكاذب؟

فنـرى فى هذه الأبيات أن الشـاعر قد شـبّه النبى(ص) بسـورة، والأنبياء بحروف للسورة، وفى البيت الأخير شبّه النبىَّ(ص) بالروح والشمس، والأنبياء بالجسم والصبح الكاذب من خلال استخدام الاستفهام الإنكار: أليست الروح تنزل قبل تكوين الجسم؟ وأن الشمس لا تطلع إلّا بعد الفجر الكاذب.

وفى موضع آخر يقول:

شاهنشاهى است احمد مرسل كه ساخت حق　　تـاج ازل كـلاهـش و درع ابـد قبـا

١. حاجة الشاعر المهناة هى أمله فى زيارة الكعبة وقبر النبى (ص).

– نبّينا أحمد ملِكٌ جعل اللهُ الأزلية تاجاً له، والأبدية رداءً له.

فأزليّة النبي مما يتطرق إليها المادحون وقد تحدّثنا عنها بالتفصيل عند شرح آية الميثاق. وأما الأبدّية فليس الغرض منها أن النبي كان أبديّاً في الوجود لأن كل شيء هالك إلّا وجهه. إذن يمكن تفسير غرض الشاعر من أبدّية النبي بأنه يقصد منها أبديّة دينه وسنّته وكتابه كقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحنُ نَزَّلنَا الذِّكرَ وإنَّا لَهُ لحافِظونَ ﴾ (الحجر: ٩) واستخدام الشاعر كلمة "الدرع" يسوقنا إلى أن نستنبط بأن الأبدية كدرع تحتفظ بالنبي(ص) ودينه من الأفول والزوال.

ويقول في هذا البيت:

او مالک الرقاب دو گیتی و بر درش در کهتری مشجّره آورده انبیا

– هو مالک رقاب العالمين في الدنيا والعقبى، وجميع الأنبياء يقدّمون إليه شجرة نسبهم في الفضل.

يشير هذا البيت إلى آية الميثاق التي تحدثنا عنها فيما سبق، فتقديم الأنبياء شجرتهم إلى النبي يعني أن الأنبياء كانوا يعرفونه ويفضّلونه على أنفسهم وتعاهدوا بنصره.

وبناء على المعتقدات الصوفية فقد قالوا في تفسير النور المحمدّي – وفيما يخص وصف النبيّ(ص) في القرآن الكريم نوراً وسراجاً منيراً بأن النبيّ(ص) ما كان له ظلّ، إذ هو كائن فوق البشر ومادّته هي النور. وأما الخاقاني فلم يصرّح في أشعاره بهذه العقيدة ولكن هناك بيت يشير وبشكل غير مباشر إلى هذه العقيدة حيث يقول:

با سایه رکاب محمد عنان در آر تا طرّقوا زنان تو گردند اصفیا

– كن في زمرة أصحاب الرسول و توسل إلى ظل أهدابه، حتى تنال مقاماً رفيعاً ليكون أصفياء الله في موكبك يفتحون عليك الطريق.

فقد استخدم الشاعر في الشطر ظل أهداب النبي بدل ظل النبي، وهذه أمارة لبعض ما تقدم ذكره.

وفيما يخص علم النبيّ(ص) بالغيب فقد قال الخاقاني:

هم عیب را به عالم اشرار پرده پوش هم غیب را ز عالم أسرار ترجمان

– كان النبي يستر عيوب الأشرار، ويبيّن الغيب من عالم الأسرار.

ويقول فى تحفة العراقين:

ای قابله نتایج غیب ای عاقله سراچه عیب

(الخاقانی ، ١٣٨٦ هـ ش: ١٧٩)

وقد اعتبر الشاعرُ النبيَّ(ص) عالماً بالغيب فى البيتين السابقين خلافاً لمن ينفى نسبة علم النبيّ بالغيب بينما تصرّح الآية التالية علم الأنبياء بالغيب فى حدود ما أراده الله: ﴿عَالِمُ الغَيبِ فَلَا يُظهِرُ عَلَى غَيبِهِ أَحَداً إِلّا مَنِ ارتَضَى مِن رَسُولٍ﴾ (الجنّ: ٢٧) أو كقول عيسى (ع) لبنى إسرائيل: ﴿وَ أُنَبِّئُكُم بِمَا تَأكُلُونَ وَ مَا تَدّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُم﴾ (هود: ٦٥) ولم يدّع الشاعر فى هذين البيتين بأن النبى(ص) عالم بكل الأسرار الغيبية، بل النبيّ يفسر ما علّمه الله من الأسرار الغيبية وأنّ القرآن ترجمان لهذه الأسرار.

ب) النبيّ غرض لخلق الكائنات

من مكونات الحقيقة المحمدية هو الاعتقاد بأنّ النبى هو الغرض الأول لله تعالى فى خلق العالم اعتماداً على حديث قدسى وهو «لولاک لما خلقت الأفلاک» وقد رواه محدثو الفريقين.

وللخاقانى أبيات فى أن النبى هو سبب خلق العالم وأن الله خلق العالم لأجله(ص):

اوست مختار خدا و چرخ و ارواح و حواس زان گرفتند از وجودش منت بی منتها

هشت خلد و هفت چرخ و شش جهات چار ارکان و سه ارواح و دو کون از یک خدا

(الخاقانی، ١٣٨٢ش: ٤)

– النبى هو الذى اختاره الله، وكانت السماء والأرواح والحواس تعلق وجودها بوجود النبى وهكذا الجنات الثمانى، والسموات السبع، والجهات الست، والحواس الخمس، والأركان الأربعة، والأرواح الثلاث، والعالمان، كلها لله الواحد الأحد.

كما يلاحظ أن الشاعر يعتقد بأن وجود الكائنات رهين لوجود النبى(ص) والخلق يعود إلى الله الواحد الأحد.

يجدر بالإشارة إلى أن الخاقانى يحسن استخدام الأعداد حيث استخدم الأعداد معكوسةً من الثمانى إلى الواحد وهذا ما يسمى بصناعة صياغة الأعداد.

وفى موضع آخر يعتبر الشاعر النبيّ مالكاً لهذا العالم وكماً فى أمورها حيث يقول:

داراوداوراوست جهان‌را،من‌ازجهان فريـاد پيـش داور و دارا بـرآورم

(المصدر نفسه: ٢٤٧)

– النبيّ مالك العالم وحكماً فيه وأنا أتظلم إليه من العالمين.

وفى بيت آخر يقول بأن هذا العالم لا يخلق إلّا لأن فيه النبيّ:

يزدان‌كه سراى شش جهت ساخت جـز بهر نشسـت تـو نپرداخت

(الخاقانى، ١٣٨٦ش: ١٦٩)

– الله الذى خلق هذه الدار ذات الجهات الست، ما خلقها إلّا لجلوسک واستقرارک فيها.

ج) تفضيل النبى(ص) على الأنبياء و على جميع الكائنات

تفضيـل الممدوح على غيره هو أحد الأغراض الرئيسـة من المـدح وهكذا الأمر بالنسبة إلى شخصية النبى(ص) فى نظرة الشاعر. ومن هذا المنطلق واستشهاداً بالآيات الشريفة: ﴿تِلکَ الرُّسُلُ فَضَّلنَا بَعضَهُم عَلَى بَعضٍ مِنهُم مَن كَلَّمَ اللهُ ورَفَعَ بَعضَهُم دَرَجَاتٍ وَ آتَينَا عِيسَى ابنَ مَريَمَ البَيّنَاتِ وَ ...﴾ (البقرة: ٢٥٣) و﴿ ... وَ كُلّاً فَضّلنَا عَلَى العَالَمِينَ﴾ (الأنعام: ٨٦) و﴿وَلَقَد فَضَّلنَا بَعضَ النَّبِيّينَ عَلَى بَعضٍ﴾ (الإسراء: ٥٥)

وأمـا نبيّنا محمد(ص) فقد اختصّـه الله بميزات لا يختصّ بها أحداً من أنبيائه منها ما أشار إليه صاحب تفسير الفرقان تحت آية التفضيل (البقره: ٢٥٣) (الصادقى الطهرانى، ١٣٦٣ش، ج٤: ٤٤ إلى ٤٩):

«... ألا وأول العابديـن ﴿قُل إن كَانَ لِلرَّحمَـنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ العَابِدِينَ﴾ (الزخرف: ٨١) إذًا فكل المرسلين هم فى المرتبة التالية لأول العابدين. وهو رحمة للعالمين ﴿وَ مَا أَرسَلنَاکَ إلَّا رَحمَةً لِلعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠) ولا نجد هذه الرحمة العالمية فى الذكر الحكيم لمن سـواه من المرسـلين[١] وهو رسـول إلى النبيّين أجمعين، وهو أطهر المتطهّرين ﴿إنّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذهِبَ عَنكُم الرِّجسَ أَهلَ البَيتِ وَيُطَهِّرَكُم تَطهِيراً﴾ (الأحزاب: ٣٣) وهو خاتم النبيين، لا يُصدّق

١.

نبى إلّا بختمه وتصديقه كما لا يُبعث بنبيّ ولا رسول بعده ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِن رِجَالِكُم وَ لَكِن رَسُولُ اللهِ وَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ﴾ (الأحزاب: ٤٠) وأن معجزته الخالدة هذه، تفوق معجزاتهم فى كمّها وكيفها، فإنها دائمة دوام شرعته إلى يوم القيامة غير فاشل فى حجتها ولا منسوخة، بل تزداد بهوراً وظهوراً على تقدّم العقل والعلم. ويعبّر الله عنه(ص) بين الشهود الرساليين بشهيد الشهداء وبكتابه «تبياناً لكل شيء»، ﴿يَومَ نَبعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيهِم مِن أَنفُسِهِم وَ جِئنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلَاءِ، وَ نَزَّلنَا عَلَيكَ الكِتَابَ تِبيَاناً لِكُلِّ شَيءٍ وَ هُدًى وَ رَحمَةً وَ بُشرَى لِلمُسلِمِينَ﴾ (النحل: ٨٩) ويقسم الله بعمربحيث لا يقسم بينهم إلّا بعمره (ص) ﴿لَعَمرُكَ إِنَّهُم لَفِي سَكرَتِهِم يَعمَهُونَ﴾ (الحجر: ٧٢)

هذه بعض الأدلّة القرآنية فى تفضيل النبّي(ص) على جميع الأنبياء (للمزيد راجع: النبهانى: ٣٥ إلى ٦٠ والصادقى الطهرانى، ج٤: ٤٤ إلى ٤٩) فاستفاد منها شعراء المديح النبوى فى أشعارهم بحيث بيّنوا تفضيل النبّي(ص) على غيره بطريقتين، تارة بصورة كليّة يفضّلون النبّي من خلالها على الخلق وعلى الأنبياء دون أن يذكروا أسماءهم، وتارة أخرى بذكر أسمائهم.

والخاقانى يعتقد بأفضلية النبيّفيفضلّه على الخلق حيث يقول:

تا مادر جان رحم گشادهست بهتر خلقى زتو نزاده است

(المصدر نفسه: ١٧٠)

– منذ أن بدأت أمّ العالم بولادة الكائنات لم تلد مولوداً أفضل منك.

وأما عن تفضيل النبّ على الأنبياء يقول الخاقانى وهو يذكر النبّ عيسى(ع):

باج ستان ملوک ، تاج ده انبيا کز در او يافت عقل خط امان از عقاب

جمله رسل بر درش مفلس طالب زکات او شده تاج رسل تاجر صاحب نصاب

عطسه او آدم است عطسه آدم مسيح اينت خلف کز شرف عطسه او بود باب

(الخاقانى، ١٣٨٢ش: ٤٤)

– الملوک رعية الرسول فيعطونه الجبايات، وهو يهبهم الأنبياءَ تاج النبوة، ومن بابه هو يتوقّى العقل من العقاب.

– جميع الرسل يفتقرون إلى زكاته وهباته وهو تاج الرسل وصاحب الزكاة.

– إن آدم(ع) مولود محمد(ص) و عيسى(ع) مولود آدم(ع) وهما ثمرة نبوّته وأن يكون الأبُ (آدم أبوالبشر) ولد ولده يدل على شرف الولد.

فى البيت الثالث «يعتبر الخاقانى المسيح بمنزلة عطسة (مولود) آدم ويعدّ آدم عطسة النبى ويقول فيه مادحاً: طوبى للابن الرشيد الذى أبصر أبوه النور من أجله، وهو كريم جليل يعرف الجميع أباه بواسطته.» (كزازى، ١٣٨٠ش: ٩٧)

ويقول أيضا:

آدم به گاهواره او بوده شير خوار ادريس هم به مكتب او بوده درس خوان

(الخاقانى، ١٣٨٢ش: ٣١٠)

– كان آدمُ(ع) رضيعاً بمهدهوإدريسَ(ع) تلميذَ مدرسته.

وفى مثنوى تحفة العراقين يأتى بمعان قريبة من هذه المعانى:

آدم ز خزان جرم رخ زرد چون لاله ز ژاله در خوى سرد

از تو اثر ربيع ديده بر جرم خودت شفيع ديده

ادريس به درس، چاكر تو تاريخ شناس اختر تو

(الخاقانى، ١٣٨٦ش: ١٦٩)

– كان آدم مصفر الوجه فى خريف معصيته، وكان خجلاً على ذنبه.

– فرأى منک الربيع ووجدک شفيعاً لذنبه.

– وكان إدريس خادماً ببابک متعلماً بمدرستک ومنجماً فى سمائک.

ويقول أيضاً:

بر دوحه فطرت جهان دار آدم شكفه ست و ميوه مختار

احمد پسِ آدم است شايد ميوه ز پس شكوفه آيد

أب كيست؟ خليل و جدكه؟ آدم او بهتر ازين و بل ازآن هم

بعد از همه آمده ست ظاهر سورت پس ابجد آمد آخر

(المصدر نفسه: ١٠٨)

– كان آدم زهرة شجرة الخلق، والنبيّ المختار ثمرتَها.

– ينبغى أن يأتى النبيّ بعد آدم، لأن الثمرة تأتى بعد الزهرة.

– من هو أبوه؟ هو الخليل(ع) ومن هو جدّه؟ هو آدم(ع) والنبيّ(ص) أفضل من أبيه وجدّه.

– لقد جاء النبيّ بعد جميع الأنبياء، إلا أن هذا دليل على كماله لأن السورة تكتمل بعد الحروف.

فيعلل الشاعر فى هذه الأبيات تأخّر النبى فى الوجود بعد الأنبياء بتعليلات منطقية لإثبات كماله وأفضليته على سائر الأنبياء. ففى البيت الأول يشبّه العالم بشجرة كان آدم زهرتها و النبيّ ثمرتها، والثمرة هى الصورة المكتملة للزهرة. هذا وفى أبيات أخرى من المقالة الخامسة من مثنوى تحفة العراقين يذكر نبيّاً من الأنبياء ويذكر له ميزةً خاصّة له، ثم يقول بأن هذه الميزة من عنايات النبيّ محمد(ص). كما فى قوله:

نوح از توبه بحر باز خورده ملاحى زورق تو كرده
ابراهيم ز تو مُهر برده تا آتش او فرو فسرده
خضر از تو شراب در كشيده الياس به جرعه اى رسيده
داود مُغنّى در تو جم ، صاحب جيش عسگر تو
يعقوب ضرير غم رسيده كحالى ديده از تو ديده
يوسف زتو كرده ملک تحصيل در صدر تو خوانده علم تأويل
يحيى ز در تو عصمت اندوز در مكتب تو فرايض آموز
عيسى ز حواريان خاصت پرورده لطف خوان خاصت

(المصدر نفسه: ١٧٣)

– نجا نوح من الطوفان بواسطتک إذ هو تتلمذ عليک وكان ربّان سفينتک.
– استشفعک إبراهيم(ع) فصارت النار عليه برداً او سلاماً.
– شرب خضر(ع) ماء الحياة بفضلک، كما إن إلياس تجرّع من معينک.
– كان داود يتغنى ببابک وكان سليمان قائد جيشک.
– واستعاد يعقوب(ع)بصره بعد أن أصابه العمى وألوان الهموم.
– تولى يوسف(ع) الحكم بواسطتک ، و تعلّم منک علم التأويل.
– اكتسب يحيى(ع) بک العصمة والنبوة، وتعلّم بحضرتک الفرائض.

– وكان عيسى(ع) من حواريىک وربيب مائدتک.

لو تُقارَن هذه الأبيـــات بالآيات القرآنية الّتى تفضّل الأنبياء على الناس، أو تفضل بعضهم على بعض، أو لو ننظر إلى الأدّلة التى ذكرناها فى تفضيل النبى(ص) على الآخرين لوجدنـــا أنّه لا مخالفة ولا تعارُض بينها وبين الآيات. فتفضيل الشـــاعرُ النبيَّ(ص) على الأنبياء فكرة منبعثة من القرآن الكريم وليس بفكرة صوفية بحتة كما يظن البعض.

النتيجة

الحقيقة المحمدية من القضايا التى طرحت فى دائرة الفكر الصوفى والعرفان الإسلامى فانتشرت فى المجتمع إلى أن شملت دائرة الشعر والأدب بحيث تناولها عدد من الشعراء ومنهم الخاقانى الشـــروانى. تنبثق الحقيقة المحمدية من عـــدد من الأحاديث التى رواها المحدثـــون عن النبيّ(ص) حيث قال "كنت نبيّاً وآدم بـــين الماء والطين". قد احتلت هذه الحقيقة مساحة كبيرة من المدائح النبوية وهذه الحقيقة هى العنصر الأساسى فى المدائح النبويّة فى شعر الخاقانى الشروانى. تتكون الحقيقة المحمدية من عدة عناصر منها: حقيقة النبيّ النوريّة بحيث يعتبر النبيّ(ص) أول الكائنات ويســـتمد كل كائن وجوده من نوره وذلـــک بالاعتماد على الآيات القرآنية كآية الميثاق على ســـبيل المثال ومنها: تفضيل النبيّ(ص) على الأنبياء وعلى جميع الكائنات ونبوّته قبل نبوّة ســـائر الأنبياء. على هذا الأساس فالنبيّ (ص) تجسّد عند الخاقانى فى صورتين: الأولى هى التى تتعلق بمرحلة ما قبل ظهوره العنصرىّ الذى كان نوره أول نور فاســـتضاء الأنبياء بنوره، والصورة الثانية هـــى التى تتعلق بما بعد خلقه وبعثته نبيّاً ومايرتبط برســـالته. وفيما يتعلق بأفضلية النبيّ وأنه غرض خلق العالم يلاحظ أن الخاقانى قد تناول هذا الموضوع فى العديد من أبياته الشـــعرية ويصرّح بذلک، علماً أن الخاقانى تمكن وبكل براعة أن يبين الجوانب الثلاثة لهذه الحقيقة معتمداً على الآيات القرانية التى نزلت بهذا الشأن.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

ابن أبى طالب، الإمام على. ١٣٧٩ش. نهج البلاغة. باهتمام محمد دشتى. ط١. طهران: نشر رامين.

أحمدى، عبدالحميد. ١٣٨٨ش. المديح النبوى فى الأدبين العربى والفارسى. أطروحة الدكتوراه. كلية الآداب الفارسية واللغات الأجنبية. طهران: جامعة العلامة الطباطبائى.
استعلامى، محمد. ١٣٨٧ش. نقد وشرح قصائد الخاقانى. طهران: نشر زوار.
برزگر خالقى، محمدرضا. ١٣٩٠ش. شرح ديوان خاقانى. المجلد١. ط١. طهران: نشر زوار.
خاقانى شروانى، افضل الدين بديل ابن على. ١٣٨٢ش. ديوان. تصحيح: ضياء الدين سجادى. ط٧. طهران: نشر زوار.
خاقانى شروانى، أفضل الدين بديل ابن على. ١٣٨٦ش. مثنوى تحفة العراقين. تصحيح وتعليق: يوسف عالى عباس آباد. ط١. طهران: نشر سخن.
الرازى، الإمام فخر الدين محمد. ١٤٠١ق. مفاتيح الغيب (التفسير الكبير). ج١١. ط١. بيروت: دار الفكر.
سجادى، ضياء الدين. ١٣٧٠ش. گزيده أشعار خاقانى شروانى. ط٤. طهران: مطبعة سپهر.
الصادقى الطهرانى، محمد. ١٣٦٣ش. الفرقان فى تفسير القرآن بالقرآن والسنة. ط١. طهران: منشورات الثقافة الإسلامية.
صفا، ذبيح الله. ١٣٧٢ش. تاريخ ادبيات ايران. طهران: دار ققنوس للنشر.
الطباطبائى، محمد حسين. ١٩٧١م. الميزان فى تفسير القرآن. ط٣. بيروت: مؤسسه الأعلمى للمطبوعات.
الطبرى، أبى جعفر محمد بن جرير. ١٤١٢ق. جامع البيان فى تفسير القرآن (تفسير الطبرى). المجلد٤. بيروت: دار المعرفة.
كاشى، عبد الرزاق. ١٣٧٦ش. اصطلاحات الصوفية. الترجمة والشرح الفارسى لمحمد على مودود لارى. طهران: منظمة الإعلام الإسلامى.
كزازى، ميرجلال الدين. ١٣٨٠ش. گزارش دشوارى‌هاى ديوان خاقانى. ط٢. طهران: نشر مركزى.
المازندرانى، ابن شهرآشوب. ١٣٧٦ق. المناقب. ج١. ط١. النجف: مطبعة الحيدرى.
مبارک، زكى. ٢٠١٢م. التصوف الإسلامى فى الأدب والأخلاق. ج١. ط١. القاهرة: مؤسسة هنداوى.
المجلسى، محمد باقر. ١٩٨٣م. بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة. ط٢. بيروت: دار إحياء التراث العربى ودار الوفاء.
النبهانى، يوسف بن اسماعيل. لاتا. حجة الله على العالمين فى معجزات سيد المرسلين. حلب: مكتبة دار الفلاح.